أ. نسيمة بوزيد - المدرسة العليا للأساتذة - قسنطينة - الجزائر

أزمة الهوية في الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية

من الضروري أن نقف أولا مع مفهوم الهوية لنحدد مختلف مدلولاتها اللغوية وأبعادهاالفلسفية والاجتماعية والنفسية ،لنخلص بعد ذلك إلى موضوع الهوية الجزائرية وحرب الإبادة التي شنها الاستعمار الفرنسي عليها وعلى الشعب الجزائري طيلة قرن ونصف قرن من الزمن. وإلى موضوع الأدب الذي كتبه الجزائريون باللغة الفرنسية لنحدد ملامح الهوية الجزائرية ومميزاتها ولنبين فيما بعد أزمة الهوية في كتابات الجزائريون وكيف تجلت في أدبهم بوجه عام وفي رواياتهم على الخصوص لا سيما وأن مسألة الهوية تعد من المسائل التي كثر الخوض فيها. "فالهوية معناها حقيقة الشيء أوالشخص المطلقة والمشتملة على صفاته الجوهرية"(1)

أما في اللغة الفرنسية فإن لفظة الهوية وهي بالفرنسية Identité مشتقة من الكلمة اللاتينية Edem التي تقال عن الأشياء أو الكائنات المتشابهة أو المتماثلة تماثلا تاما مع الاحتفاظ بتماثل بعضها عن بعض (2). وفي قاموس Le Robert « ما يسمح بالتعرف على شخص بين جميع الأشخاص الآخرين" (3).

واستنادا إلى التعريفات السابقة الخاصة بمعاني الهوية التي تتعلق بشخص الإنسان، إنها تلك المعلومات المسجلة في بطاقة التعرف أو بطاقة الهوية التي تشمل الاسم واللقب وتاريخ الميلاد ومكانه والنسب العائلي وعنوان الإقامة بالإضافة إلى العلامات الجسمية المميزة كالطول ولون الشعر ولون العينين ورغم كل هذه المعلومات، فإنها تبقى هوية الشخص جد ناقصة وبعيدة عن الدقة المطلوبة، ويبقى هناك عالم الإنسان الداخلي وما ينطوي عليه من مشاعر وأفكار وعواطف وتجارب في علاقاته بعالمه الخارجي وغيرها من العوامل التي تدخل ليكون لها دور في التأثير البالغ الأهمية في تكوين شخصية الفرد من الناحية الجسمية والنفسية و الاجتماعية فإذا انتقلنا من هوية الفرد إلى هوية الجماعية وجدنا أنّ معظم العناصر التي تشكل

المنارة للاستشارات

الهوية الفردية تنطبق على مفهوم الهوية الجماعية أو" ما اصطلح عليها بتسمية الهوية الوطنية إذ يتعلق الأمر بمجموعة معينة من البشر يحملون اسما يُعرفُون به ويقطنون رقعة جغرافية معينة وينتمون إلى عرق غالب أو أعراق متعددة انصهرت مع الزمن في بوتقة واحدة وكونت هوية مشتركة"(4)

وإذا أتينا إلى موضوع الهوية الجزائرية فإننا ولأسباب منطقية صرفة سننطلق في مناقشة هذا الموضوع بدءًا من الغزو الفرنسي للجزائر؛ وذلك للأسباب التالية:

1 -أن تاريخ الجزائر بالرغم من التشويه والتحريف الذي ألحقه به الاستعمار ظل تاريخا معروفا للعام والخاص ولا مجال للاختلاف فيه بين الباحثين.

2 -يعد الاستعمار الفرنسي هو" المسؤول الوحيد الذي أنكر هوية الشعب الجزائري وجعل بين ضمن مبررات غزوه للبلد أن الجزائريين ،لا يشكلون أمة واحدة ولا شعبا متجانسا، وإنما هم أعراف مختلفة وقبائل متناثرة "(5).

3 -إن فترة الاحتلال الفرنسي هي المنطلق لمعالجة موضوع بحثنا الأساسي ألا وهو الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية ومن ثمة أزمة الهوية فيه باعتباره أحد نتائج تفاعلات الاحتلال على الصعيدين الثقافي واللغوي.

ويرجع المؤرخ والباحث Jean Déjeux أول نص أدبي كتبه جزائري باللغة الفرنسية إلى سنة 1891 هو عبارة عن قصته بعنوان (انتقام الشيخ) كتبها محمد بن رحال ونشرتها المجلة الجزائرية التونسية الأدبية والفنية، ويعتبر جون ديجو سنة 1920 كانطلاقة حقيقية لهذا الأدب الناشئ ويعد مؤلف (القايد بن الشريف) الموسوم بأحمد مصطفى القومي بداية لتلك انطلاقة وينظر على أنها أول رواية كتبها جزائري باللغة الفرنسة"(6).

إنّ الأوضاع السياسية التي عاشتها الجزائر، هي التي تفسر لجوء الكتاب الجزائريين إلى اللغة الفرنسية كأداة للتعبير في كتاباتهم. فكل من الأدبين الفرنسي والجزائري قد استفادا من الظروف التي كانت قائمة إذ أسهمت في إثرائهما. في التبادل المباشر للأفكار والأحاسيس، والمشاعر، وكذا التفاعل بين الثقافة الفرنسية، والتراث العربي الإسلامي الجزائري، وقد أوضح هذا الكاتب الجزائري مولود معمري حيث يقول:"المزايا التي اكتسبها من الثقافة الغربية هي التي

المنارة للاستشارات

ساهمت في استعادتنا القيم الحقيقية لثقافتنا الصرفة التي كادت أن تُبقي لنا كلمات ميتة صماء"(7)

ويذهب إلى أبعد من هذا ليصرح بأن الثقافة أصبحت أداة ممتازة من أجل التحرير. وقد أكّد أن النقاد الفرنسيين مشيرا إلى مساهمة مولود فرعون في الأدب الفرنسي، قائلا: "أدخل مؤخرا حيوية جديدة في الأدب القصصي الفرنسي "(8).

ولم تكن الفائدة والمنفعة أقل من هذا بالنسبة للجزائريين، إذ يرى مولود معمري أن وجود ثقافتين في الجزائر كان وضعا في صالح الكتاب فيقول: " أكاد أقول أن ذلك حظ، وربما تكون قيمة الكاتب الذي يعزف على وترين أفضل من قيمته من يكتفي بأن يعبر عن شعوره بلسانه الخاص، ويجب اعتبار ذلك ثروة جزائرية تغني الثقافة الجزائرية، فلا يجب أن نبتر هذا الجزء الذي هو حظ خاص بالجزائر كما أعتقد"(9)

فالكتاب الجزائريون بسبب حاجز اللغة، لم يكونوا قادرين على الوصول إلى مخاطبة شعبهم، ما عدا قلّة محدودة، وقد أسماهم مالك حدّاد، "الأيتام المحرومون من القراء الأصلاء"، ويعلق الدكتور سامي الدروبي في مقدمة ترجمته للثلاثية قائلا: "أما هذه الدلالة البليغة التي يشير إليها محمد ديب، فهي أن هؤلاء الكتاب العرب قد عرفت فرنسا بأساليب التجهيل التي اتبعتها في الجزائر، أن تنتزع منهم أداة التعبير باللغة الأم، وأن تضع بين أيديهم أداة أخرى هي اللغة الفرنسية. لا صلة لهم في الإعراض عنها إذا أرادوا أن تدور ألسنتهم بكلام أو أن تجري أقلامهم بكتابة... وليس الربط بين الأم واللغة الأم من باب الجموح في الخيال. فاللغة التي خاطبت بها الأم ابنها أول مرة عهدة بالكلام، وأول عهدة بتفتح الوعي وانبجاس المشاعر واغتناء العواطف، تظل هي اللغة التي تتصل بالقلب والفكر والخيال جميعا، اتصالا لا انفصام فيه، أن عواطف الطفولة موصولة الأسباب بالشخصية كلها، كما يعلمنا علم النفس"(10).

ويجسد الروائي الجزائري كاتب ياسين مأساة الأدباء الجزائريين الذين يكتبون بالفرنسية، ومحنة الغربة اللغوية والثقافة في عباراته المشهورة: "أنا منفي في اللغة الفرنسية"، وقال الأديب مالك حداد: "أنا أرطن لا أتكلم، إن في لغتي لكنة،

المنارة للاستشارات

إنني معقود اللسان، أنا لا أغني... أنا لا أغني... فلو كنت أعرف الغناء لقلت شعرا عربيا، لقد شاء الاستعمار أن يكون في لساني آفة، أن أكون معقود اللسان"(11)

وهذه ثلاثية محمد ديب العظيمة بكل إخلاصها للشعب الجزائري، ووفائها للعروبة وعدائها للاستعمار الفرنسي مكتوبة باللغة الفرنسية، ومترجمة إلى اللغة العربية. فكأنها قد ترجمت مشاعر محمد ديب مرتين، مرة بالفرنسية، ومرة أخرى باللغة العربية.

إن قصائد مالك حداد مثلا في ديوانه "الشقاء في خطر"، وأشعار كاتب ياسين في "المضلّع الخماسي"، وبعض اللوحات في روايته "نجمة"، تعد من أروع الأشعار العالمية التي تغنت بالثورة، مما تعد أعمال محمد ديب، ومولود فرعون من أهم الأعمال التي أرخت أدبيا لخصوصية المجتمع الجزائري، ولإشكالية الصراع الحضاري الذي كان قائما بين هذا المجتمع وبين المجتمع الاستعماري الذي أراد أن يقضي على هذه الخصوصية، وأن يفرض عليه قيمه المادية والروحية؛ فجاءت الثورة كنتيجة حتمية لوضع حدّ لهذا الصراع.

نجد مولود فرعون مثلا، اختار عددا من الحوادث والوقائع، والمواضيع التي تتلاءم مع مزاجه وخبرته، وذوقه. فعالج في روايته الأولى الفقر في منطقة القبائل، أثناء فترة الاحتلال، وتعتبر رواية "ابن الفقير" Le fils du pauvre، سيرة ذاتية تصف طفولته ومراهقته في حياة الأسرة الجزائرية الفقيرة في تلك الفترة، كما أنها تصف السنوات الأخيرة من الحرب العالمية الأولى.

وفي الرواية الثانية "الأرض والدم" La terre et le sang، تصف لنا وقائع الحرب العالمية الأولى والثانية، أو بالأحرى الفترة الواقعة بينهما. وفي روايته الثالثة – هي امتداد للرواية الثانية "الدروب الوعرة" les chemins qui montent، هي بصورة عامة تمثل خيبة أمل الإنسان الجزائري، وعدم رضاه بالواقع الاجتماعي الذي يعيش فيه.

أما مولود معمري فأعماله تعبر عن مآسي الشعب الجزائري وأحزانه، وبؤسه، ومن أشهر رواياته "الهضبة المنسية" La colline oubliée، والرواية الثانية "السبات

العادل"le Sommeil du juste، وفي روايته الثالثة "الأفيون والعصا" L'opium et le bâton.

أما كاتب ياسين فقد أثرت فيه مذابح سطيف سنة 1954م، تأثيرا بالغا، وكانت الكتابة هي الأسلوب النضالي الذي ابتكره لنصرة القضية الوطنية الجزائرية، ومن أشهر رواياته "نجمة" التي شخصها، وبعث فيها روح امرأة، وجسدها بمثابة روح البلاد.

أما محمد ديب فقد استخدم الإنسان الجزائري كمرآة عاكسة للأوضاع، وقد سجّل الأحداث السياسية والاجتماعية، وتابع تطور الجزائريين من الركود إلى اليقظة الوطنية، فارتبط محمد ديب بشعبه، فصور مظاهر الفقر والحرمان والمعاناة في ثلاثيته العظيمة: الدار الكبرى، الحريق، النول.

فالأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية استطاع أن يثبت هويته بجدارة، كما اشترك مع الآداب الأخرى في العالم الثالث، واستطاع أن يتبين المضمون الإنساني الذي أحيته التجربة الجزائرية، واستطاع هذا الأدب أن يحتل المكانة في مصاف الأدب العالمي، وأن يكشف عن هويته، وحضارته، ولغته.

ومن هنا نقول، ليست المسألة مسألة إعجاب بالحضارة الفرنسية أو عدمها بقدر ما القضية قضية ظرف تاريخي، كما يقول مراد بوريون الأديب الجزائري: "إن اللغة الفرنسية ليست ملكا خاصا للفرنسيين، وليست سبيلها سبيل الملكية الخاصة، بل إن أية لغة إنما تكون ملكا لمن يسيطر عليها، ويطوعها للخلق الأدبي، أو يعبر بها عن حقيقة ذاته القومية"(12)، وتقول آسيا جبار، في هذا الصدد: "إن مادة قصصي ذات محتوى عربي، وتأثّري بالحضارة العربية، والإسلامية لا تحد. فأنا إذن أقرب إلى التفكير بالعربية الفصحى مني إلى التفكير بالفرنسية دون إنكار لفضل هذه اللغة"(13).

إن الكتاب الجزائريين الذين كتبوا باللغة الفرنسية، يقول على لسانهم، مالك حداد: "نحن نكتب بلغة فرنسية، لا بجنسية فرنسية"، وقال أيضا: "لقد شاء لي الاستعمار أن أحمل اللكنة في لساني،... أن أكون معقود اللسان... ولو كنت أعرف الغناء لتكلمت بالعربية"(14).

المنارة للاستشارات

وصفوة القول، إن هذا الأدب يؤكد أن كتابه التحموا بالواقع الجزائري، وبالشعب الجزائري، وقاتلوا معه في خندق واحد، وعلى جبهة نضالية واحدة، لأن الكاتب قبل كل شيء هو نتاج واقعه ونتاج التاريخ(15)، فالرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية جزء لا يتجزأ من هوية هذا الشعب، عبّرت عن كل التحولات الثورية، وظهرت بكل قوة مصاحبة التغيرات السياسية، والاجتماعية، والثقافية، وعبرت عن كل التحولات الثورية التي آل إليها المجتمع الجزائري، وأعطت له صبغته، وأسمعت هويته(16).

لقد كان محمد ديب في هذه المرحلة من حياته يعي بأنه جزء لا يتجزأ من شعبه، وقد كان يهدف بقلمه لأن يكون أكثر من شاهد على المأساة التي يعيشها شعبه، فيقول:"إننا نعيش دراما مشتركة، نحن ممثلون في هذه المأساة، وبدقة أكثر؛ يبدو لنا أن هناك عقدا يربطنا بشعبنا، ونستطيع أن نسمي أنفسنا كتابه الشعبيين، يجب أن نلتفت إليه قبل كل شيء، ثم نلتفت إلى العالم لنشهد هذه الخصوصية، ونسجل مدى وقع الخصوصية في الكون، فالرجال متشابهون ومختلفون في الوقت نفسه، إننا نصفهم مخالفين لنتعرف على أشباههم"(17)، فعندما بدأ محمد ديب يكتب الرواية، كانت الجزائر تمر بمرحلة تاريخية صعبة، فشعر بالمسؤولية، وكان شأنه في ذلك شأن كل جزائري في فترة الخمسينيات، ومن الصور الحية التي استطاع محمد ديب أن يرسمها، وينقلها إلى العالم، ظهرت تحت اسم ثلاثية الجزائر، فوصفها أرجون Aragon بأنها مذكرات الشعب الجزائري.

وقد علّق عليها محمد ديب عندما كتب كلمة تقديم للطبعة العربية، بعث بها إلى مترجمها الفقيد الدكتور سامي الدروبي، فقال:"أحس وا أسفاه، أن اللوحة التي رسمتها لا تبلغ من السعة كل ما ينبغي أن تبلغه، فكانت هناك أشياء كثيرة مفرطة في الكثرة يجب تصويرها، وكان تصويرها يحتاج إلى موهبته، وقد اضطررت أيضا إلى حذف عدد من العناصر حرصا مني على أن يصدقني القارئ. ذلك أنني وجدتني أمام وقائع كثيرة لا يصدق العقل أن تقع..."(18)

هكذا أراد محمد ديب أن يكون روائيا ملتزما بالقضية، ملتزما بمشاكل شعبه، عازما أن يناضل إلى جانبه بالقلم وأن يسجل على أحداثه من خلال ثلاثيته

المنارة للاستشارات

"الجزائر" لأن الإنسان لابد أن يكون حرا، ويناضل ويكافح من أجل الحرية، فقال مجيبا أحد الصحفيين:

« *Le peuple algérien est évoqué dans la trilogie, non comme une masse, statique, mais comme une nation dynamique, en gestation. Il est incontestable, déclarait en 1958 que je traite du peuple algérien de son réveil jusqu'à maintenant, l'Algérie, n'était pas nommée, en littérature, de peindre un paysage, ceux qui l'habitent, les faire parler comme ils parlent, c'est leur donner une existence, qui ne pourra plus être contestée, on pose le problème, on pose l'homme, je vis avec mon peuple, j'ignore tout le monde bourgeois* »(19).

ومن هنا نرى أن الخطاب الروائي كان يحاول أن يقوم بدور إعلامي يهدف إلى تعريف القارئ بحقيقة ما يجري في الجزائر، ويحسسه بفداحة المشكلة. ويدفع به إلى اتخاذ موقف فاعل ومؤثر على مجريات الأحداث من أجل إيقاف دوّامة العنف وإيجاد تسوية سليمة للأزمة تحقن الدماء، وقد ظل هذا هو الخطاب السائد في الأعمال الروائية الجزائرية باللغة الفرنسية طيلة فترة الثورة المسلحة. ولقد برهن الكتاب الجزائريون على التزامهم بقضايا الشعب الجزائري، ومن ثم برهنوا على انتمائهم لهذا الشعب، فكانوا لسان حال الشعب في تلك الفترة العصيبة التي شملت سنين الحرب الثانية وما بعدها(20).

ونعتقد أن الأدب كتبه الجزائريون باللغة الفرنسية منذ العشرينيات من هذا القرن إلى اليوم، قد شكل ظاهرة مثالية للتعبير عن هذه "القضية"أو "الأزمة" الأدبية، الفكرية، الثقافية، السياسية، وأنه جسد في حد ذاته معلما بارزا في هذه الأزمة.

الهوامش

1. لويس معلوف: المنجد في اللغة والأدب والعلوم /ط03 ،بيروت مادة هوية ، ص554/565.

2. ينظر قاموس (Le Petit Larousse En Couleur) : Identité1984Paris Le Petit Robert .Dictionnaire Alphabétique Et Analogique De La Langue Française.Ed .Paris.1984

3. بناء على أرنست باركر الوارد في كتاب ساطع الحصري حول الوحدة الثقافية العربية ، نشر مركز دراسات الوحدة العربية ، سلسلة التراث القومي ، ط02 ، بيروت ، 1985 ، ص13/14.

4. مصطفى الأشرف: الجزائر الأمة والمجتمع ، ترجمة : حنفي بن عيسى ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1983 ،ص261/264.

5. Jean Déjeux .Situation De La Littérature Maghrébine De Langue Française .OPU : Alger .1982. p.18

6. Idem. p.19.

7. أديب عايدة بامية، الأدب القصصي الجزائري (1925 -1969)،ترجمة: محمد صقرة،ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر، 1962، ص 71، 78.

8. المرجع ، نفسه، ص ،ن.

9. سامي الدروبي، مقدمة الثلاثية،ترجمة :سامي الدروبي ،دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، 1967، ص (5، 6، 7).

10. أحمد محمد عطية، البطل الثوري في الرواية العربية الحديثة، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ، 1977 ،ص (35، 36).

11. عايدة بامية، الأدب القصصي الجزائري، ص.36.

12. المرجع نفسه ،ص، ن.

13. أحمد منور: "من هو الكاتب الجزائري وهوية الأدب الذي يكتبه؟" مجلة الثقافة ، الجزائر، العدد المزدوج، 9/8، 2006، ص118.

14. واسيني الأعرج، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب: الجزائر، 1986 ، ص77.

15. سامي الدروبي، ثلاثية محمد ديب، ص10.

16. سامي الدروبي، مقدمة الثلاثية، ص (7، 9).

17. أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي: نشأته، وتطوره، وقضاياه، ديوان المطبوعات الجامعية، 2007، ص426.

18. Arnaud jackline, la littérature maghrébine de langue Française, Tome 1. p. 81.

المنارة للاستشارات

19. Déjeux Jean, situation de la littérature maghrébine de la langue française. p. 61. Littérature Française (1945-1977).